موقف الناقد "أبي بكر الصولي" من الشاعر "أبي تمام" في كتابه "أخبار أبي تمام"

د. كوثر محمود علي عبيد (*)

ملخص البحث:-

أضحى الصراع النقدي حول المذهب التقليدي الذي يمثله البحتري وأنصار عمود الشعر ومذهب البديع الذي يمثله أبو تمام، أحد المحاور التي وجهت حركت النقدي القديم في القرن الرابع الهجري. كان من ثمرات هذا الصراع النقدي، عدة كتب ومؤلفات ذات صبغة منهجية بالغة القيمة، لما اشتملت عليه من قيم نقدية ومصطلحات وأراء وعلى رأسها كتاب – أخبار أبي تمام – لمؤلفه أبو بكر الصولي (ت٣٣٥هـ). ولكتاب أخبار أبي تمام قيمة كبيرة، ففيه أخبار ونظرات نقدية عظيمة، تجلي لنا جوانب مهمة من حياة أبي تمام وشعره وثقافته، ومقدرته الفنية، وعلاقاته مع غيره من الشعراء كالبحتري والممدوحين والنقاد، ومؤلفه الصولي – ثقة فيما يرويه بحكم قرب عهده بأبي تمام، وبحكم بصره بالأدب والشعر وذوقه وقدرته على التقييم، ونظراً لإعجابه الشديد بفن وشاعرية وذوق أبي تمام.

تناولت الدراسة كتاب – أخبار أبي تمام– بالدرس والتحليل، فقد حاولنا في هذا البحث أن نقدم صورة متكاملة عن موقف الصولي في مجال النقد الأدبي. وتأتي أهمية هذه الدراسة في أنها كشفت عن قضايا نقدية جديدة في تراثنا النقدي القديم جديرة بالاهتمام لالتقائها مع مفاهيم نقدية حديثة. فقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي في شرحنا وتحليلينا لمختلف المقولات والآراء النقدية.

اقتضت طبيعة الدراسة أن أقسمه إلى مبحثين ، درست في المبحث الأول، تحليل رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك وبناء الرسالة وأهم المعاني التي جاءت فيها. ودرست في المبحث الثاني، منهجه النقدي حيث وقفت على أهم المسائل والموضوعات التي عالجها من مثل: نظرته للدين وعلاقته

(*) أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية– كلية العلوم والآداب– خميس مشيط – جامعة الملك خالد – المملكة العربية السعودية.

بالشعر، موقفه من الشعراء المحدثين والقدامى، وموقفه من أبي تمام والبحتري.

فقد كشفت الدراسة أن الصولي وقف موقفاً دفاعياً من شاعره المفضل أبي تمام: شخصه وشعره ، والرد على أعدائه ، وقد سخر كل ما في وسعه لكي يدافع عن شاعره. فكان منهجه في كل آرائه النظرية والتطبيقية منهجاً دفاعياً، كأسلوب المقايسة ، والنمط التفسيري والتحليلي التي أحضرها خدمة للشاعر، لإظهار إبداعه وتفوقه. كما أبانت الدراسة أن بنية النص في كثير من المواضع ،جاءت بنية تفسيرية تعليلية ، قصد بها إقناع القارئ وكانت المقايسة أهم طريقة أبرز بها الصولي الظلم الواقع على أبي تمام وتعسف الأحكام التي تناولته وتناولت شعره ، وهذا لا يخلو من واضح الميل وصريح التحيز لشاعره والكيفية التي يبرز فيها تعصبه ،مما يتيح المجال لدراسته وفق النظريات النقدية الحديثة والمعاصرة.

المقدمة:

أضحى الصراع النقدي حول المذهب التقليدي الذي يمثله البحتري وأنصار عمود الشعر ومذهب البديع الذي يمثله أبو تمام، أحد المحاور التي وجهت حركة النقد القديم في القرن الرابع الهجري.

كان من ثمرات هذا الصراع النقدي، عدة كتب ومؤلفات ذات صبغة منهجية بالغة القيمة، لما اشتملت عليه من قيم نقدية ومصطلحات وأراء وعلى رأسها كتاب – أخبار أبي تمام – لمؤلفه أبو بكر الصولي (ت٣٣٥هـ).

ولكتاب أخبار أبي تمام قيمة كبيرة، ففيه أخبار ونظرات نقدية عظيمة، تجلي لنا جوانب مهمة من حياة أبي تمام وشعره وثقافته، ومقدرته الفنية، وعلاقاته مع غيره من الشعراء كالبحتري والممدوحين والنقاد، ومؤلفه الصولي – ثقة فيما يرويه بحكم قرب عهده بأبي تمام، وبحكم بصره بالأدب والشعر وذوقه وقدرته على التقييم، ونظراً لإعجابه الشديد بفن وشاعرية وذوق أبي تمام.

تناولت الدراسة كتاب – أخبار أبي تمام– بالدرس والتحليل، فقد حاولنا في هذا البحث أن نقدم صورة متكاملة عن موقف الصولي في مجال النقد الأدبي. وتأتي أهمية هذه الدراسة في أنها كشفت عن قضايا نقدية جديدة في تراثنا النقدي القديم جديرة بالاهتمام لالتقائها مع مفاهيم نقدية حديثة. فقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي في شرحنا وتحليلينا لمختلف المقولات والآراء النقدية.

اقتضت طبيعة الدراسة أن أقسمه إلى مبحثين ، درست في المبحث الأول، تحليل رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك وبناء الرسالة وأهم المعاني التي جاءت فيها. ودرست في المبحث الثاني، منهجه النقدي حيث وقفت على أهم المسائل والموضوعات التي عالجها من مثل: نظرته للدين وعلاقته بالشعر، موقفه من الشعراء المحدثين والقدامى، وموقفه من أبي تمام والبحتري.

فقد كشفت الدراسة أن الصولي وقف موقفاً دفاعياً من شاعره المفضل أبي تمام: شخصه وشعره ، والرد على أعدائه ، وقد سخر كل ما في وسعه لكي يدافع عن شاعره. فكان منهجه في كل آرائه النظرية والتطبيقية منهجاً

دفاعياً، كأسلوب المقايسة ، والنمط التفسيري والتحليلي التي أحضرها خدمة للشاعر، لإظهار إبداعه وتفوقه. كما أبانت الدراسة أن بنية النص في كثير من المواضع ،جاءت بنية تفسيرية تعليلية ، قصد بها إقناع القارئ وكانت المقايسة أهم طريقة أبرز بها الصولي الظلم الواقع على أبي تمام وتعسف الأحكام التي تناولته وتناولت شعره ، وهذا لا يخلو من واضح الميل وصريح التحيز لشاعره والكيفية التي يبرز فيها تعصبه ،مما يتيح المجال لدراسته وفق النظريات النقدية الحديثة .

تمهيد:

ازدادت الخصومة الأدبية بين أنصار الشعر القديم والمحدث، وبلغت أوجها حول أبي تمام الذي أفرط في تعقيد شعره وتوشيحه بألوان البديع، فأما اللغويون والإخباريون فأعرضوا عن شعره، وأما الأدباء بما فيهم الكتاب وأصحاب المعاني، فحفلوا به ودرسوه، ولما ظهر في المحدثين من يقول الشعر على مذاهب الأوائل وطريقتهم كالبحتري، تعصب له اللغويون وأنصار الشعر القديم وفضلوه على أبي تمام واتخذت الخصومة حول أبي تمام طابع المفاضلة بينه وبين البحتري.

ولم تقف الخصومة الأدبية حول أبي تمام عند المذهب الأدبي، بل ألف أعداء أبي تمام الكتب في انتقاص شعره والغض منه، واستشهدوا بآراء أئمة اللغة والنحو ونسبوه إلى السرقة والإغارة على معاني الأقدمين، وألف أنصاره الكتب في التعصب له والإفراط في تفضيله[١].

ولكن هذه المعارك الأدبية والفنية وصلت أشدها في عصر الصولي، فنراه يشارك في رحى هذه المعارك، فألفة كتابه المشهور "أخبار أبي تمام".

عرف الصولي، كغيره من أكثر القدماء، بثقافته الموسوعية التكاملية، فكان فضلاً عن أنه شاعر من الشعراء العلماء وراوٍ وصاحب معرفة واسعة بالشعر والدواوين واللغة والنحو والبلاغة والموسيقى والغناء والتاريخ، ذا مشاركة في العلوم الدينية إذ برز في رواية الحديث وألف في علوم القرآن، وأثارها جميعاً في تواليفه[٢].

المبحث الأول
كتاب أخبار أبي تمام

كتاب جمع الصولي فيه أخبار أبي تمام بتكليف من "أبي الليث مزاحم بن فاتك" كما يتضح من رسالة الصولي إليه(٣).

ولكتاب أخبار أبي تمام قيمة نقدية كبيرة، إلى جانب ما يحتويه من أحداث ومناقشات ومناظرات وآراء مهمة، تضم شروحاً لكثير من الجوانب الفنية التي يتميز بها شعر أبي تمام عن غيره من الشعراء ولا شك أن أخبار أبي تمام هذه، قد أضاءت لنا بعض الجوانب الغامضة من الحياة الأدبية والنقدية، وأطلعتنا على طريقة فهم القدماء للشعر وتذوقه ونقده.

وقد ضمن الصولي هذه الأخبار إلى جانب ما جاء في تفضيل أبي تمام وحياته وأخباره، علاقته بممدوحيه، فجمع أخباره مع أحمد بن أبي دؤاد، وخالد بن يزيد الشيباني والحسن بن وهب، وابن الزيات،... وختم الصولي أخبار أبي تمام بذكر ما روى من معايبه، وصفته وأخبار أهله، ثم وفاته ومراثيه... (٤).

وكتاب أخبار أبي تمام يعتبر من أمهات الكتب التي أرخت لأوليات الصراع الناشئ بين مذهبي الطبع والصنعة، كما أن فيه أخبار كثيرة أنفرد الصولي بذكرها(٥).

ويرى بعض الباحثين أن كتاب أخبار أبي تمام الذي دافع فيه الصولي عن أبي تمام، يعتبر رداً على كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري الذي يتعصب فيه الآمدي للبحتري(٦).

لماذا تصدى الصولي الدفاع عن أبي تمام أولاً، ثم اهتم بأخباره وشعره فشرح ديوانه وكتب : أخبار أبي تمام"؟(٧)

لقد كانت مجاراة مزاحم بن فاتك له، في آخر لقاء لهما في أمر أبي تمام وعجبه "من افتراق آراء الناس فيه"(٨) بين مادح وقادح هي التي قوت من عزمه وحرضته(٩) على "تبين فضله والرد على من جهل الحق فيه"(١٠)

هذا الدفاع الذي لم يستطع أن يخفيه الصولي بل طالعنا من الصفحات الأولى في رسالته مزاحم التي صرح الصولي بغرضه فيها: "في تفضيله، وذكر

من عرفه فقدمه وقرظه، والاحتجاج على من جهله فأضره وعابه... واذكر جميع ما قيل فيه، وإن كان قصدي..." (١١)

وبسبب نظرة الصولي هذه إلى مذهب أبي تمام، فقد قسم النقاد إلى فريقين: (١٢)

الفريق الأول: الأنصار – وهم – المقدمون في علم الشعر وتمييز الكلام، والكاملون من أهل النظم والنثر، هؤلاء يوفونه حقه، يحلونه "موضعه من الرتبة" ومنهم من "يلحقه بمن تقدمه" ومنهم من يفرط" فيجعله نسيج وحده وسابقاً لا مساوي له "

الفريق الآخر: الخصوم، وهم عند الصولي صنفين:

الصنف الأول: فئة الجهال بالعلم، يتعصبون على أبو تمام بالتقليد والإدعاء.

الصنف الآخر: وهم أتباع المذهب القائل " خالف تذكر" الذين يظنون بالطعن على فن أبي تمام سيكتسبون شهرة.

ويعد الصولي هؤلاء غير مؤهلين إطلاقاً للخوض في ميدان النقد ويسخر منهم في قوله: " ليت أبي تمام مُنى بعيب مَنْ يَجِلُّ في علم الشعر" قدره أو يحسُنُ به علمُه، ولكنه مني بمن لا يعرف جيداً، ولا يذكر رديئاً إلا بالإدعاء.... (١٣).

ونرى من خلال ما تقدم أنة ما ذكره الصولي دليل قوي ومقنع على أن هدفه الأساسي من كتابه هو الدفاع عن أبي تمام، وفنه الشعري، وتقريع عائبيه.

وأن هناك وجه آخر يظهر فيه اضطلاع الصولي مهمة الدفاع عن أبي تمام في سياق حديثه عن مؤلفاته ومصنفاته، وإن الناس يتهافتون عليها، ويتجاهلون غيرها، لما تحويه من أخبار قيمة.

فقد رأى أشياء كثيرة مما أملاه قديماً من المعاني التي تجاذبها الشعراء وحملها الناس، ولم يعرفوها مصنفة مبينة إلا بعد إيراده لها، قد تخرمها قوم وأوردوها مفرقة في أماليهم، فبانت في علومهم. وإن كتابيه " الشامل في علم القرآن" و"الشبان النوادر" قد سطا عليهما "أبو موسى الحامض"(١٤) من أشد خصوم الصولي وكان يثلبه ويكثر من العيب والطعن عليه(١٥).

وهذا يدل على ثقة الصولي بنفسه، ومنزلته العلمية الرفيعة، ضد أعدائه وحاسديه.

ويفهم أيضاً من رسالة الصولي لمزاحم، أن أحداً في ذلك العصر لم يكن له من الكفاءة والمقدرة على القيام بهذا العمل في قوله: "وأن أحداً منهم لم يجسر أن ينِشد قصيدةً من شعر هذا الرجل ضامناً للقيام بما فيها، فضلاً عن إيراد أخباره، والاحتجاج لما عيب عليه، والتضمُّن لجميع شعره، والنَّضح عنه، والذبِّ عن حَريمه، والتنبيه عن جيده، ليُعلم عُلُّوه في الشعر وتقدمه في الفهم(١٦).

ويرى د بكار: ".... وهذا وجه من وجوه تباهي الصولي واعتزازه بنفسه، ومسوغ لتعهده مهمة أخبار أبي تمام وتقصيها والعناية بشعره وشرحه"(١٧).

فعلى الرغم من حمل الصولي على هؤلاء الذين كانوا يزاحمونه على التأليف هم ليسوا أهلاً له، فإنه لم يذكر أسمائهم، إلا أبا "موسى الحامض". هذا الأمر حداً ببعض الدارسين يروون أن دفاع الصولي عن أبي تمام ليس دفاعاً خالصاً.

وفي هذا السياق لا بد من عرض بعض أراء النقاد ومناقشتها، والرد عليها.

يرى الأستاذ أحمد أمين: " أن الصولي تعصب لأبي تمام تعصبا سافرا"(١٨).

ويرى د. محمد مندور: "فهو تعصب ولجاجة عقلية وفساد ذوق وإسراف في الغرور والتماس للفرص يظهر فيها علمه"(١٩).

ويرى د. محمد أبو حمده في قوله: "ويبدو أن التعصب الأدبي لأبي تمام أو عليه لم يكن وليد الذوق الأدبي، إذ أننا نجد جذوراً للخصومة والعداء بين الصولي وتلاميذه أبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) وأبي عبدالله المرزباني (ت٣٧٨هـ) وتلاميذه لما فيهم الآمدي (ت٣٧٠هـ) من جهة أخرى"(٢٠).

ويرى هؤلاء الدارسون إن الصولي أشار إلى الخصومة في رسالته إلى مزاحم.

كما يرى د.محمد أبو حمده أن الصولي: " يتخذ من الخصومة حول أبي تمام واجهة للتهجم على أبي موسى حامض أقدم أصحاب أبي العباس ثعلب[٢١] وأبي إسحاق الزجاج[٢٢] أستاذ الآمدي وأقدم أصحاب أبي العباس المبرد[٢٣].

ويتابع قائلاً: "ويغمز الصولي من قناتي أبي موسى الحامض والزجاج، ومن رأى رأيهما بكيل الثناء والمديح لأبي العباس ثعلب وأبي العباس المبرد والغض من غيرهما ممن يجلس مجلسهما ويتحلى بآدابهما " أنه رأى أكثر المشتغلين بالأدب يختلفون عما عهده على القدماء الماضين الذين يتسمون بالأستاذية..." ويطلبُ الرجلُ منهم فناً من فنون الأدب فيقسم له حظٌ وينال درجة فيه، فلا يرى أن اسمَ العالم يتم له، ولا أن الرِّياسة تنجذب إليه، إلا بالطعن على العلماء"، ويستثني من ذلك اثنان هما " أبو العباس أحمد بن يزيد الأزدي، وأبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني"[٢٤].

إن ما ساقه هؤلاء النقاد من أن هذه الخصومة هي التي كانت وراء تأليف الصولي كتابه، للرد على خصومة، وليس دفاعاً حقيقياً عن أبي تمام.

ونحن بدورنا نرى أن هذه الخصومة يمكن أن تكون دافعا من الدوافع لتأليف وجمع كتاب أخبار أبي تمام، ولكنه لم يطغ على الهدف الرئيسي الذي صرح به الصولي في مقدمة رسالته لمزاحم، هو دفاعه عن أبي تمام.

نتساءل لماذا استثنى الصولي، أبو العباس ثعلب، وأبو العباس المبرد، مع أنهم من اللغويين الذين يتبعون القديم ويرفضون التجديد؟

يتضح لنا أن الصولي كان يميل الى اكتساب ودهم، ويستشهد بقول المبرد الذي عدل عن آرائه القديمة في أبي تمام وشعره، وأقر فنه وتجديده، ويعدهم الصولي من الأساتذة المشهورين الذين ثقفوا أنفسهم، ويستطيعون الحكم على الشعراء وتمييز ألفاظهم، يقول: "ما سمعت أحسن من هذا قط ، ما يهضم هذا الرجل حقه إلا أحد رجلين: إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام... وإما عالم لم يتبحر شعره، ولم يسمعه"، ويقول الصولي: نقلا عن عبدالله بن المعتز: إن المبرد ما مات إلا وهو منتقل عن ما كان يقوله، مقر بفضل أبي تمام وإحسانه[٢٥].

وأورد حكاية عن أبي العباس ثعلب؟ مفادها أنه قرئ عليه شعر لأبي تمام، وكان قوم يشرحونه له، فقال ثعلب: " أحسن والله وأجاد"[٢٦].

مع أن الصولي ذكر أن ثعلباً من أئمة الطاغين على أبي تمام[٢٧].

وفي موضع أخر رواية عن ثعلب يبين فيها أنه انتقد ابن الأعرابي لأنه عاب أشعار أبي تمام، عندما عرف ابن الأعرابي أن هذه الأبيات لأبي تمام، قال: "خرق خرق"، أي مزق مزق[٢٨].

ورد عليه ثعلب: " إن من عاب هذه الإشعار التي ترتاح لها القلوب، وتجذلُ بها النفوس، وتصغي إليها الأسماع، وتحشدُ بها الأذهان، فإنما غضَّ من نفسه، وطعَن على معرفته واختياره"[٢٩].

وبهذا نجد أن الصولي قد ساق آراء اللغويين ليثبت الفضل والإحسان لشاعره أبي تمام على لسان أكبر الأئمة اللغويين.

المبحث الثاني

منهج الصولي في دفاعه عن أبي تمام

ظهر منهج الصولي في دفاعه عن أبي تمام، من خلال آرائه ونظراته النقدية المبثوثة في الكتاب، حيث جاء تناوله لهذه الآراء من الناحية التطبيقية، من واقع الشعر وفنونه، وأغراضه ومعانيه وألفاظه، وإن كنا نجد بعض الآراء النظرية في بعض نواحي نقده(٣٠).

نستنتج أن الصولي استخدم أسلوب المقايسة، في انتصاره لشاعره أبي تمام، "أن مبدأ المقايسة في وضوحه عند الصولي هو خدمة كبيرة للشاعر"(٣١).

١- موقف الصولي من العلاقة بين الشعر والدين:

نبه الصولي إلى ناحية لم يشر إليها أحد من قبله – على حد قول الأستاذ إحسان عباس – تلك هي المعتقد الديني التي اتخذها النقاد منفذاً للطعن في أبي تمام، بأنه كان يخل بفروضها، ويصلي صلاة خفيفة(٣٢).

لكنَّ الصولي دافع عنه في هذه الناحية بقوله: "وقد ادَعى قوم عليه الكفر بل حققوه، وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت أن كفراً ينقص من شعره، ولا أن إيماناً يزيد فيه(٣٣).

أكد الصولي، أن الكفر لا يؤثر في جودة أو رداءته، لا ينقص من شعر الشاعر" ثم ولج باب المقايسة "(٣٤) وقال: "ولو كان على حال الديانة لأغروا من الشعراء بلعن من هو صحيح الكفر... وما نقصت بذلك رتب أشعارهم، ولا ذهبت جودتها، وإنما نقصوا هم في أنفسهم وشقوا بكفرهم"(٣٥).

ويرى د. بكار: " وهذا وجه من المقايسة صحيح"(٣٦).

"وانتقل الصولي في مقايسته من الإطلاق والعموم إلى الحصر والتخصيص المحدد"(٣٧) فقال: "وكذلك ما ضَّر هؤلاء الأربعة، الذين أجمع العلماء على أنهم أشعر الناس: امرأ القيس والنابغة الذبياني وزهيراً والأعشى، كفرهم في شعرهم، وإنما ضرهم في أنفسهم، ولا رأينا جريراً والفرزدق يتقدمان الأخطل عند من يقدمهما عليه بإيمانهما وكفره ، إنما تقدمهما بالشعر"(٣٨).

إن مقايسة الصولي أبا تمام بالشعراء الجاهلين، خطأ من وجهة نظر د. إحسان عباس، ويصدق عليه مزلق " الإيهام المنطقي إذا لا يجوز أن تطالب الجاهليين بمقاييس إسلامية وهم قد عاشوا قبل الإسلام ولكن الصولي بمثاله المقياسي الآخر على الفكرة الأساس، مثال[٣٩] جرير والفرزدق، فإنه كان مقنعاً، وينجو من أن يؤخذ بالإيهام المنطقي [٤٠].

٢- المنهج التفسيري في الرد على معائب أبي تمام:

ومن أنماط المقايسة التي استخدمها الصولي، هو نمط تفسيري، أظهر فيها الصولي مقدرة كبيرة على تحليل الشعر وتفسيره، ثم إصدار حكم، ففي تفسيره وتوضيحه للأبيات، كان هدفه الأساسي هو الدفاع عن شعر أبي تمام، وإظهار التفوق له، ورد ما عيب به شعره.

ونجد أن الصولي قد أفرد أبحاثاً لما عيب فيه شعر أبي تمام ومن الأمثلة على ذلك: "أن قوماً عابوا قول أبي تمام:

كأنَّ بني نبهانَ يوم وفاته نُجوم سماءٍ خرَّ من بينه البدرُ

وحجة العائبين: "أراد أن يمدحه فهجاه، كأن أهله كانوا خاملين بحياته، فلما مات أضاءوا بموته...كان يجب أن يقول كما قال الخريمي:

إذا قمرٌ منهم تغوَّر أو خَبا بدا قمرٌ في جانبِ الأفق يلمعُ

أما الصولي فيجيبهم بكلام طويل خلاصته "فأراد أبو تمام تفضيله (المرثي) عليهم وإن كانوا أفاضل، وليس ضياء البدر يذهب بالكواكب جملة، ولا ينقل طبعها ولكن المستضيء به أبصر من المستضيء بالكواكب، فإذا فقد البدر استضاء بهذه، وهي دونه فكأن أبا تمام قال: إن ذهب البدر منهم فقد بقيت فيهم كواكب". ولم يكتف بالتفسير، وإنما ردفه بمقايسة معنى بيت أبي تمام بقول النابغة الذبياني في اعتذاريه نعمانيَة:

ألم تر أن الله أعطاك سَورةً[٤١] ترى كل ملكٍ دونها يتذبذبُ

وقال: "فهذا المعنى الذي غزاه (أراده) أبو تمام، فقد نطق به النابغة بعينه، لأنه اعتذر إلى النعمان من ذهابه إلى آل جفنه ولم يذمهم، ولكنه فضله عليهم وشكرهم...

وهذا (أي: بأنك شمس...) مفسر بأشياء تؤول إلى معنى واحد وهو: فضلك عليهم كفضل الشمس على الكواكب. وقيل: أراد أنك ما صلحت لي لم احتج الى هؤلاء وإن كان فيهم فضل، كما أن من أضاءت له الشمس لم يحتج إلى انتظار ضوء الكواكب "[٤٢] .

ومثال آخر على المقايسة، يذكر فيه الصولي أن عائبي أبي تمام استهجنوا وجود "التين العنب" في قوله:

تسعونَ ألفاً كآساد الشرى نَضِجت أعمارهم قبل نضج التين والعنبِ

ويرده قائساً إياه بقول عبدالله بن قيس الرقيات:

سَقياً لحُلوان ذي الكروم وما صنَّف من تينه ومن عنبه

وبما أنشده الفراء شاهداً على "مد" العنب:

كأنه من ثمر البساتينْ العنباءُ المتنقّى والتين

"ثم يدعم رأيه بحكاية "جو" قصيدة أبي تمام عامة والبيت المعنيَ خاصة"...[٤٣]

واللافت في هذه الحكاية أن الصولي يستحضر بها السياق التاريخي لقصيدة أبي تمام "والأدب لا يمكن أن يفهم فهماً أعمق إلا من خلال سياقه التاريخي، لأن الإبداع الأدبي لا يمكن أن يتذوق إلا في ضوء معطيات لغوية وقومية وحضارية إيديولوجية محدده على ألا تطغى على مؤرخ الأدب والناقد نزعه المؤرخ الذي يحول كل شيء إلى وسائل ووثائق وينسى أو يتناسى القيم الفنية التي هي لب عمله وجوهره؟[٤٤] .

نرى أن أسلوب المقايسة عند الصولي، كأن أسلوباً ناجحا وموفقاً، وأظهر فيه الصولي مقدرة فائقة بما أتيح له من معرفة وثقافة لغوية تاريخية أدبية، مكنته من الرد على من يعيب شعر أبي تمام، ونراه يقارن بالشرح والتحليل والتفسير، معيبة أبي تمام بمعائب شعراء آخرين مظهراً في النهاية فضل أبي تمام وتفوقه، وحسن تصرفه وراجحة عقله.

وقد جعل الصولي أبا تمام على رأس مدرسة في الشعر وهو صاحب مذهب جديد قائم بذاته فيها، ورفع شأنه حتى قال عنه:"وهو رأس في الشعر مبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعده، فلم يبلغه فيه، حتى قيل: مذهب الطائي، وكل حاذق بعده ينسب إليه ويقفي أثره"(٤٥) .

٣-موقف الصولي من مسألة القديم والحديث:

انبرى الصولي للدفاع عن أبي تمام ومذهبه الجديد، فوجه سهام نقده إلى مهاجمة الجامدين، الواقفين عند حدود القديم، الذين يرفضون الجديد،لا لشيء إلا لجدته، لا يرضون عن القديم بديلاً، لا لشيء إلا لقدمه، وسفه أفكارهم، وأنكر تزمتهم وجهلهم، ووصفهم بضيق الأفق، وقلة الدراسة والاطلاع ومعللاً بذلك بأنهم لم يسمعوا أشعاراً مثلها في معانيها وصورها وأخيلتها، لذلك اعتبروها خروجاً عن عمود الشعر العربي الموروث.

فنجد الصولي في هذا المجال يتصدى لهؤلاء النقاد المتزمتين المهاجمين للتجديد رافضاً مبدأ التعصب سواء للقديم أو الحديث، قائلاً إن الجودة الفنية ومقدرة الشعراء هي الفيصل في الحكم إلى الشعر وليس القدم أو الحداثة(٤٦) .

ويعلل الصولي تعصب النقاد للقديم (٤٧) بسبب جهلهم بما أتى به الشعراء المحدثون ثم عداؤهم له "قصروا فيه فجهلوه"(٤٨) "ويفرّ العالم منهم من قول إذا سئل أن يقرأ عليه شعر بشار أبي نواس ومسلم وغيرهم من (لا أحسن الطعن) وخاصة على أبي تمام إلا أنه أقربهم عهداً وأصعبهم شعراً"(٤٩) .

ويعد الصولي أبا تمام رمزاً للشعراء المحدثين عنده، ويقول صراحة إن أبا تمام نابغة الزمان، وزعيم المجددين "وإن من يتبحر شعره، سيجد ان كل محسن بعده، لائذ به منتسب أليه في كل إحسانه"(٥٠) .

دافع الصولي عن أبي تمام فيما يخص سرقاته، حتى قال: "بأن لو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة، لوجب أن يصرف عن أبي تمام لكثرة بديعة واختراعاته واتكائه على نفسه"(٥١) .

وعلى الرغم من موقف الصولي من الشعراء المحدثين إلا أنه لم يغمط حق الآخرين في سبقهم إلى المعاني والصور الشعرية، التي أخذ بها الشعراء المحدثون بل نراه يثبت حقهم ويؤكده ويذهب إلى أن المتأخرين – ويقصد المحدثين – يجرون بريح المتقدمين ويصبون في قوالبهم(٥٢)

ويرى أن المتقدمين لهم السبق بحق الاختراع والابتداع والطبع(٥٣) .

ومن خلال ما تقدم، نجد أن الصولي دائماً يثبت الإجادة والتفوق للمعاني التي أخذها المحدثين من القدماء، وأن موقفه من المحدثين كان بدافع ميله إلى أبي تمام.

أما المنهج الذي اتبعه الصولي في ذلك فقد أثبت الأمثلة الكثيرة وقارن بين ما أتى به القدماء من معانٍ وصور بديعية، وبين ما أتى به المحدثون من الصور والمعاني المشابهة ولم يتوان عن إثبات الجودة لشعراء المحدثين ، وقد استند إلى أسلوب المقايسة وهو نمط تفسيري يقوم على التحليل والتفسير وإصدار حكماً، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

يقارن الصولي هنا بين ما أخرجته قريحة شاعرين محدثين حول معنى واحد... فنراه يقارن ما أخرجته قريحة أبي تمام بقول أبي نواس حول معنى تدوول كثيراً بين الشعراء هو الإفراط في الإعطاء".

ويتساءل الصولي تساؤلاً مقايسياً عما عيب على أبي تمام في قوله:

مـــا زال يهـــذي بالمواهـــب دائبـــاً حتـــــى ظننـــــا أنـــــه محمـــــومٌ

فقال "فكيف لم يسقطوا أبا نواس بقوله في العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر:

جُـــــدْتُ بالأمـــــــوال حتـــــى قيـــــل: مـــــا هـــــذا صـــــحيح!

ويقول: "أن شعر أبي تمام أحسن وأجود في معناه لأن المحموم أحسن حالاً من المجنون لأن هذا يبرأ فيعود صحيحاً كما كان والمجنون قلما يتخلص من مرضه، وأبو تمام في تشبيه الإفراط في الإعطاء والبذل بإكثار المحموم أعذر من أبي نواس إذ شبه بفعل المجنون فلهذا كان معنى أبي تمام أجود"(٥٤).

٤- موقفه من البحتري:

لا شك أن ظهور البحتري بعد أبي تمام وتناوله لأغراضه ومعانيه، جعل النقاد يقارنون بين الشاعرين، وطريقتهما في التعبير(٥٥) .

وتناول الصولي موضوع السرقات بين الشاعرين، فأظهر أن البحتري تابع لأبي تمام، لائذٌ به.

قال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشـــــرُ فضـــــيلة طويت أتــاحَ لهــا لســان حســودِ

فقال البحتري:

ولن تستبين الدهرَ موضع نعمــة إذا أنت لم تــدلل عليهــا بحاســدِ(٥٦) .

وزاد الصولي بأن البحتري لم يتبع أبا تمام في معانيه فحسب بل يستعير كثيراً من ألفاظه(٥٧) .

قال أبو تمام:

يســتنزلُ الأمــل البعيــد ببشــره بشرى المُخيلــة بــالربيع المغــدق

"فحسَّن هذا المعنى وكملة، ثم أوضحه في مكان آخر واختصره فقال:

إنمــا البشــر روضــةٌ فــإذا أعقــب بــذلا فروضــةٌ وغــديرُ

"فما زال البحتري يردد هذا المعنى في شعره ويتبع أبا تمام فيه ويقع من أكثره دونه(٥٨) .

أثبت الصولي مجموعة من الروايات ويعترف فيه البحتري بفضل أبي تمام عليه في قوله: "وجيد أبي تمام خير من جيدي" فأقره الصولي على ذلك وقال: "وقد صدق البحتري في هذا جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه"(٥٩) .

ويرى د.ناصر حسين أن هذا تصريح خطير على لسان البحتري يشير إلى أن كل ما قاله هو من عند أبي تمام.

لكن الصولي لا يقصد الحط من قيمة البحتري، فهو يظل الشاعر المفضل عنده بعد أبي تمام يقول: "لا أعرف أحداً بعد أبي تمام أشعر من البحتري... ولا أحسن ديباجة، ولا أتم طبعاً، وهو مستوى الشعر، حلو الألفاظ... ومع ذلك يلوذ بأبي تمام"(٦٠) .

فهذه شهادة من الصولي بشاعريته وشعره من حيث لفظه وديباجته وتمام طبعه واستوائه

ومهما يكن فإن البحتري من الشعراء المحدثين، ولا بد أن تكون له مكانة خاصة من الشعراء عند الصولي وعلى هذا الأساس جعله أشعر الناس بعد أبي تمام.

وعلى الرغم من أن الصولي دافع دفاع المستميت عن أخطاء ومعائب شعر أبي تمام، إلا أنه اعترف بوجود مثل هذه الأخطاء عنده، ولكنه يتابع قائلاً أن هذه الأخطاء وإن وجدت فهي لا تقلل من شاعريته "ولو وهم أبو تمام في بعض شعره، أو قصر في شيء منه لما كان من ذلك مستحقاً أن يبطل إحسانه(٦١) .

وختاماً بعد هذه الدراسة النقدية في آراء الصولي في كتابه"أخبار أبي تمام" رآينا أن الصولي وقف موقفاً دفاعياً من شاعره المفضل أبي تمام: شخصه وشعره والرد على أعدائه، وقد سخر كل ما في وسعه لكي يدافع عن شاعره.

ووجدنا في كل آرائه النظرية والتطبيقية منهجاً دفاعياً، كمبدأ أسلوب المقايسة والنمط التفسيري والتحليلي التي أحضرها خدمة للشاعر، لإظهار أبداعه وتفوقه.

وبينا المواطن التي برز فيها ميل الصولي إلى أبي تمام، التي اقتصرها على إجادة شاعره ،وكثرة إبداعه واختراع المعاني في الشعر، وإطالة الفكر وإعمال المعاني واستنباطها، وما إلى ذلك، فكان دفاعا شخصياً فيما وجه إليه من ضعف العقيدة، ودفاعاً فنياً في أخذ عليه في شعره.

بهذه الوسائل والأساليب التي ذكرتها في البحث دافع بها الصولي عن شاعره أبي تمام بها، ولكنها أسباب تحتاج برأي ي إلى مزيد من الدراسات النقدية المعاصرة ،كالدراسات الحجاجية في نقدنا المعاصر،مماهو جدير بالذكر، أن رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك، تحمل في طياتها مقاصد حجاجية، التي غلبت عليها صبغة الجدل والمحاجّة ،وطريقة المقارنة ،ما يتيح للباحثين دراسته من جانب حجاجي، والاستفادة من النظريات النقدية المعاصرة في إعادة بناء قراءة جديدة لنقدنا القديم .

الهوامش

(١) محمد علي أبو حمده، النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع والهجري، دار العربية، بيروت، ط١، ١٩٦٩، ص٣٧.
(٢) صبحي ناصر حسين: أبو بكر الصولي ناقداً، دار الجاحظ، بغداد، ط١، ١٩٧٥، ص ١٣-٤٠.
(٣) الصولي أبي بكر(محمد بن يحيى (ت ٣٣٥)،أخبار أبي تمام- رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك، تحقيق خليل عساكر، المكتب التجاري، بيروت، (د.ت)، ص٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٠.
(٥) المصدر نفسه، المقدمة.
(٦) المصدر نفسه، المقدمة.
(٧) يوسف بكار: حفريات من تراثنا النقدي، دار المناهل – بيروت – ط١، ٢٠٠٧م، ص١٢٣.
(٨) أخبار أبي تمام، رسالة الصولي إلى مزاحم، ص٣.
(٩) حفريات من تراثنا النقدي، ص١٢٣.
(١٠) أخبار أبي تمام، ص٥.
(١١) المصدر نفسه، ص٥.
(١٢) رسالة الصولي إلى مزاحم ص ٣.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.
(١٤) أبو موسى الحامض سليمان بن محمد بن أحمد النحوي البغدادي، أحد العلماء بنحو الكوفة، أخذ النحو عن ثعلب، وإن قيل له الحامض لشراسة أخلاقه.
(١٥) أخبار أبي تمام، ص١٠.
(١٦) المصدر نفسه، ص١٢.
(١٧) حفريات من تراثنا النقدي، ص١٢٤.
(١٨) أحمد أمين، أصول النقد الأدبي، ط١، مصر، ١٩٦٤ و ٤٨١/٢.
(١٩) محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، ١٩٦٩، ص٩١.
(٢٠) النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري، ص٤١.
(٢١) احمد بن يحيى الشيباني البغدادي، أبو العباس، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة (ت ٢٩١هـ)
(٢٢) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري، أقدم أصحاب المبرد قراءة عليه، كان من أهل الأدب والدين... أخذ الأدب عن المبرد وثعلب...(ت ٣١٠هـ).
(٢٣) المبرد، إمام من أئمة أهل العربية والنحو في زمانه، وصاحب كتاب الكامل (ت٢٨٥).
(٢٤) إخبار أبي تمام، ص٦.
(٢٥) أخبار أبي تمام، ص٢٠٤.
(٢٦) المصدر نفسه، ص١٥.
(٢٧) المصدر نفسه، ص١٦.
(٢٨) المصدر نفسه، ص٢٢٠
(٢٩) أخبار أبي تمام، ص١٧٦.
(٣٠) الصولي ناقدا، ص٧٤.

(٣١) ينظر، حفريات من تراثنا النقدي، المقايسة النقدية قبل الجرجاني، ص١٢٢.
(٣٢) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العـــرب، دار الشـــروق، رام الله، ط١، ٢٠٠١، ص١٣٩.
(٣٣) أخبار أبي تمام، ص١٧٢.
(٣٤) حفريات من تراثنا النقدي، ص١٢٦.
(٣٥) أخبار أبي تمام، ص١٧٣.
(٣٦) حفريات من تراثنا النقدي، ص١٢٦.
(٣٧) المرجع نفسه، ص١٢٧.
(٣٨) أخبار أبي تمام، ص١٧٤.
(٣٩) تاريخ النقد العربي القديم، ص٣١١.
(٤٠) حفريات من تراثنا النقدي، ص١٢٨.
(٤١) سورة: منزلة.
(٤٢) أخبار أبي تمام، ص١٢٥-١٣٢.
(٤٣) أخبار أبي تمام، ص٣٠-٣٢.
(٤٤) ينظر، حفريات من تراثنا النقدي، ص١٣٠.
(٤٥) أخبار أبي تمام ص٣٧.
(٤٦) أخبار أبي تمام، ص١٦-١٧.
(٤٧) المصدر نفسه، ص١٤.
(٤٨) المصدر نفسه، ص١٤.
(٤٩) المصدر نفسه، ص١٥.
(٥٠) المصدر نفسه، ص٧٦.
(٥١) أخبار أبي تمام، ص١٠٠.
(٥٢) المصدر نفسه، ص١٧.
(٥٣) المصدر نفسه، ص١٧.
(٥٤) أخبار أبي تمام، ص٣٢-٣٣.
(٥٥) الصولي ناقداً، ص٩٤.
(٥٦) المصدر نفسه، ص٧٧.
(٥٧) المصدر نفسه، ص٧٤.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٧٣ وما بعدها.
(٥٩) المصدر نفسه، ص٦٧.
(٦٠) أخبار أبي تمام، ص٧٣.
(٦١) الصولي ناقداً، ص١٢٥.

قائمة المصادر والمراجع

١- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، رام الله، ط١، ٢٠٠١م.
٢- احمد أمين، أصول النقد الأدبي، ط٧، مصر.
٣- الصولي أبي بكر(محمد بن يحيى (ت ٣٣٥)،أخبار أبي تمام، تحقيق خليل عساكر ومحمد عبده عزام، المكتب التجاري، بيروت، (د.ت).
٤- محمد علي أبو حمده، النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع والهجري، دار العربية، بيروت، ط١، ١٩٦٩.
٥- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، ١٩٦٩.
٦- يحيى ناصر حسين: أبو بكر الصولي ناقداً، دار الجاحظ، بغداد، ط١، ١٩٧٥م.
٧-يوسف بكار: حفريات من تراثنا النقدي، دار المناهل –بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.